الحصة السادسة

اكْتِشَافُ اليَوْمِي:
فينُومينُولُوجْيَا الاعْتِيَادِي

آرُونْ وسَارْتَر

تحدث وقائع القصة سنة 1930. لدى عودته من برلين حيث قضى وقتًا من أجل البحث، التقى ريمون آرون بجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار في إحدى مقاهي باريس. بينما كان سارتر يتناول عصيرًا، توجَّه إليه آرون بالقول: «أتَرَى زَمِيلي؟ إذَا أرَدْتَ أنْ تَكُونَ فينُومِينُولُوجيًّا، يُمْكِنُكَ أنْ تَتَكَلَّمَ عَنْ هَذَا العَصِير، وَهَذَا بالذَّات عِبَارَة عَنْ فَلْسَفَة!». علَّقت سيمون دي بوفوار على ذلك: «اجْتَاحَت سَارْتَر مَوْجَة مِنَ الشَّغَف، لأنَّ هَذَا بالضَّبْط مَا كَانَ يَبْحَثُ عَنْه مُنْذُ سَنَوَات: الحَدِيث عَن أشْيَاء يَلْمَسُها بنَفْسِه وتَكُون هِيَ الفَلْسَفَة ذَاتَها. أقْنَعَهُ آرُون بأنَّ الفينُومينُولُوجْيَا تُجِيبُ بالضَّبْط عَن انْشِغَالَاتِه: مُجَاوَزَة التَّعَارُض بَيْن المثَالِيَّة والوَاقِعِيَّة، وإثْبَات سِيَادَة الوَعْي وحُضُور العَالم كَمَا يَتَجَلَّى لَنَا» (عن بيير ماشراي، "اليَوْمي: مَوْضُوعٌ فَلْسَفي؟"، ص4).

الأصِيلُ والمزَيَّف

يذهب بروس بيغو في كتابه «**اكْتشَافُ اليَوْمي**» عكس رأي دو سارتو عن اليومي. بالنسبة لبيغو، الذي وظَّف المعجم الفينومينولوجي في قراءة ظاهرة اليومي، لا يمكن دائمًا إرجاع هذا الأخير إلى الإبداع والابتكار. بل إنَّ الطابع المنفلت لليومي يجعل كل ابتكار يتعرَّض لنقيضه وهو الهدم؛ وكل أصالة تستبدُّ بها عدم الأصالة. لنُفكِّر مثلًا في ظاهرة المزيَّف (conterfeit) وهي صُنع منتجات لا قيمة لها تضاهي المنتجات الحقيقية. مثلًا المصنوعات الجلدية مثل محفظة الأوراق النقدية التي لها ماركات عالمية وذات ثمنٍ باهظ ومحفظة أخرى تشبهها في الشكل واللون وهي «طبق الأصل»، لكنها مزيَّفة وزهيدة الثمن وتُصنع في معامل غير شرعية في دول فقيرة. لا يمكن عدُّ هذه المنتجات ابتكارًا سوى لأنها عبارة عن محاكاة للماركات العالمية. الشيء نفسه مع الحقائب والملابس الرياضية والعطور.

نَقْد مِيشَال دُو سَارْتُو

يوجِّه بيغو نقده إلى فكرة الابتكار عند دو سارتو ويرى بأنها ساذجة، لأنَّ هذا الأخير اعتدَّ بالبُعد الدينامي والاحتفالي لليومي وما يُمكن للتكتيكية أن تخلقه من وضعيات حيوية تفرُّ من الرقابة الاستراتيجية. لا يمكن التَّعويل على جمالية اللحظة الإبداعية في اليومي، بل هناك أيضًا لحظات في التَّطويع والتَّدجين تجعل الناس سواسية بقوَّة العادة: «بقرَاءَتنَا لكتَاب **"ابْتكَارُ اليَوْمي"**، عَلَيْنَا أنْ نَتَحَرَّر منَ الانْطِبَاع بالقِيمَة الزَّائدَة والسَّاذجَة التي يُوليهَا للابْتِكَار الخلَّاق والعَادِي» (بيغو، اكتشاف اليومي، ص572). في نظر بيغو، يكون دو سارتو قد أسرف في استعمال ثنائية الاستراتيجية والتكتيكية، بجعل التكتيكية نقيض القضية دون مآلٍ جدلي، لأنها تحتال على الاستراتيجية وتفلت من إجراءاتها في الرَّقابة والضبط لتبدع شيئًا مغايرًا وفريدًا.

اليَوْمَنَة

«لَيْس منْ شَأن اليَوْمي أن يُواجهَ مَنْظُومَة المعايير الاجْتمَاعيَّة، لكن عَلَيْه أيضًا أن يَتَعَايشَ مَعَ عِيَاريَّة السَّيْرُورَة في اليَوْمَنَة» (ص575). معنى ذلك، علينا أن نتصوَّر اليومي أقل حربيةً وأكثر جدليةً. وما يُسمِّيه بيغو «**اليَوْمَنَة**» (quotidianisation) يخرط في هذه السَّيرورة الجدلية في انتظام الممارسات اليومية، وأنَّ اليومي هو قوة جاذبة في التَّطبيع والتَّطويع، ولا يمكن دائمًا تصوُّره بشكل رومانسي في المقاومة والانزياح. لا يمكن تصوُّر اليومي كما لو كان سلطة مطلقة أمام مقاومة راديكالية؛ كما لو كان صراعًا مانويًّا بين الأسود والأبيض، بل هناك ألوان وسطى ودرجات بينية تجعل التعايش بينهما ممكنًا.

الأَلْفَة والغَرَابَة

قبل الحديث عن الشكل الذي يكون عليه اليومي والإجراءات التي تُحرِّكه، استراتيجيات كانت أم تكتيكات، وجب طرح السؤال الفلسفي وهو إمكانية الفعل وطبيعة التجربة الإنسانية التي تخوض اليومي. يمكن للفعل أن يكون خضوعًا للمعايير الاجتماعية دون مقاومة، ويمكنه أن يكون مناهضةً لهذه المعايير بإزاحتها عن أصلها واستعمالها لأغراض أخرى غير ما جُعلت لأجله. تتخلَّل اليَوْمَنَة الفضاء البيني للألفة والغرابة، تارةً خضوع للمعايير وتارةً أخرى خروج عليها، تارةً استراتيجية في التَّطبيع، وتارةً أخرى تكتيكية في التَّخريب. حسب بيغو، لا يمكن رجحان الكفَّة لإحداهما دون الأخرى.

اللَّاشُعُور اليَوْمي

إنَّ اليومي يفعل بالأفراد على غير درايةٍ منهم، بمجموع المعايير الموزَّعة التي يخضعون إليها وتُبرز الجانب الاعتيادي من معيشهم. يُشكّل التعقُّل محطة أساسية من محطات اليَوْمَنَة: «لَيْسَ هَذَا التَّعَقُّل اليَوْمي مُجرَّد حِيلَة أو مَهَارَة مُتَكَلِّفة (تُرْجِعُ الظُرُوف إلى مَصْلَحَتِهَا الخاصَّة)؛ بَل هي مُوَازية للبُهْتَان اليَوْمي وتَسْعَى لأَنْ تُخَفِّف منْ مَفَاعليه الضَّارَّة» (ص582). هناك في اليومي وقائع ليست دائمًا سعيدة ومَدْعاة للابتكار، بل هي في الغالب مثبِّطات تقتضي النباهة لتفاديها. حدَّدها هايدغر مثلًا في الهمِّ (souci)، وسارتر في سوء النيَّة (mauvaise foi)، ليس بالمعنى الأخلاقي، بل بالمعنى الوجودي للكلمة.

التَّعَقُّل

بحكم أنَّ وجود الإنسان في العالم يقتضي البحث عن المسوّغات والأعذار، فلا تتطلب المسألة الحكم عليها، بل وصفها واستخلاص آليات اشتغالها: «يُخْرِجُنَا التَّعَقُّل منَ الخضُوع الجاهِل ومنَ الممَارَسَات الاحْتيَاليَّة ويَجْعَلُنَا في تَمَاسٍ مَعَ الوَاقع الأصِيل للحيَاة الجاريَّة» (ص583). معنى ذلك أنَّ التعقُّل لا يُختزَل في حسابٍ يعمل على كسب الظروف لصالحه في سلوكٍ احتيالي يقاوم الإجراءات السلطوية (الاستراتيجية)، بل هو سلوك يقظ، ينتبه للمثبِّطات اليومية ويسعى لتفاديها، دون أن ينسى أو يتناسى بأنَّ البُعد المعياري لليومي أمرٌ وارد ويُنظِّم حياة الأفراد، أحيانًا بلا درايتهم. التعقُّل هو حكمة عملية يُنسِّق بين مختلف النشاطات اليومية للتجربة الإنسانية، بكل ما تحمله من تناقضات وما تواجهه من اختلافات جوهرية بين الألفة والغرابة، وبين العادي والخارق للعادة.

النَّظَرُ بَدَلًا مِنَ النَّظَرِيَّة

ما يتميَّز به اليومي عند بيغو هو أنه ظاهرة تنفلت من الإحاطة. نعرف اليومي بمجرَّد أننا نحدس جوهره، ما أن نباشر إلى القبض عليه في لغة فلسفية معلَّلة برهانيًّا ومنسَّقة، فهو يفلت منَّا. كيف الاقتراب منه؟ يمكن أن نجازف بالقول مع بيغو، بأنَّ اليومي ليس مسألة «**نظرية**» (اجتماعية، وفلسفية، وتاريخية)، بل هو مسألة «**نظر**»، أي الرؤية النبيهة التي تعمل على حدسه في العُمق بوسائل فينومينولوجية في أبعادها ونتائجها. نرى ما يكشف عنه اليومي بذاته في مختلف تحوُّلاته وطفراته.

المظْهَرُ والظَّاهِرَة

إذا قرأنا اليومي بالمصطلحات الفينومينولوجية، نُدرك بأنَّ هذا الأخير ينفلت من الدراسة ويحتجب ليختبئ في عين ظهوره، أي أنه يضحى مجرَّد مظهر. للوصول إلى ماهية اليومي ينبغي عزل أو تعليق كل إشارة إلى البُعد التجريبي أو الأمبريقي، أي أنَّا نتوقَّف عن رؤية الأشياء بمنظار المنفعة أو المصلحة، ونُجرِّد رؤيتنا الذَّرائعية للوصول إلى ماهية الظواهر. تدريب النَّظر على كيفية رؤية أشياء العالم هو المدخل الأساس لإدراك جوهر اليومي. الخطأ الذي ترتكبه الفلسفة في مقاربتها لليومي هو اعتقادها بأنَّ النظرية الفلسفية كفيلة بالقبض على جوهر اليومي، بينما ما تقبض عليه في سلسلة البراهين والحجج هو فقط المظهر، لأنَّ اليومي يختفي في عين ظهوره. على الفيلسوف أن يُدرِّب نظره أكثر فأكثر ليخترق سُمك المظهر ويصل إلى الظاهرة.

النَّشْأة

بناءً على الرؤية التي تتعالى على الشيئية الفظَّة لليومي، يُقدِّم بيغو تصوُّره لليومي وخطة الطريق الفلسفي نحو اليومي: «في الحقيقَة، مَا يَقُودُ تَأَمُّلَنَا، لَيْسَ إِبْرَاز مَضْمُون اليَوْمي بلا إِمْكَانية في التَّغْيير، أي جَوْهَره الكَوْني والعَابر للتَّاريخ، بقَدْر مَا هُو فَهْم عَمليَّة تَشَكُّله. لا تَهْدفُ مُقَارَبَتُنَا إلى الكَشْف عَن البنْيَات الأَوَّلية والقَبْليَّة للحَيَاة اليَوْميَّة، بَل النَظَّر في نَشْأتهَا الاجْتمَاعيَّة-المتَعَالية انْطلَاقًا من العَلاقَة الأَصْلية بَيْنَ الإِنْسَان والعَالم» (ص64). بالتَّفتيش عن ماهية اليومي في عملية تشكُّله، فإنَّ المنهج الذي يسير وفقه بيغو هو «**النشأة**» (genèse)، وهي طائفة من العوامل المحلية والمتعالية التي أسهمت في جعل اليومي ما هو عليه في محض ظهوره.

hidden

تَوَارِي اليَوْمي

يُدرَك اليومي ببنيات قبلية للوعي، وبالحدس الأصلي والسابق على كل تجربة: «لَيْسَ اليَوْمي أَكْثَرَ تَوَحُّشًا وسَابقًا عَلَى كُلّ مَفْهُوم منْهُ مُتَوحِّش مَفْهُوميًّا، بمعْنَى أَنَّ اليَوْمي لا يَفْلُت كليَّة منَ العَقْل أو اللُّوغُوس (logos)، بَلْ يَفْلُت فَقَط منَ اللُّوغُوس النَّظَري للخطَاب الفَلْسَفي والعلْمي الذِي يَسْعَى لأن يُضْفي عَلَيْه عَقْلَانيَّة مَنْطقيَّة-صُوريَّة التي لا يَمْتلكُهَا في شَكْله الخالص» (ص67). جوانب كثيرة من اليومي تبقى في الظل، متوارية عنَّا. مهمَّة الفلسفة هي أن تُلقي نظامًا من الإنارة الفينومينولوجية لتبديد العتمة التي تستبدُّ باليومي.

انْفِلَاتُ اليَوْمي

يمكن تصوير اليومي على شاكلة الجبل الجليدي أو آيسْبرغ حيث الجانب الخفي هو أعظم من الجانب الظاهر والمعطى المباشر لحواسنا. ما ندركه من اليومي هو فقط ما يمكن للنَّظر أن يحيط به. عليه أن يلج أكثر في طبقاته السَّميكة والعميقة لينجلي له أكثر. لليومي قدرة عجيبة على الانفلات من آليات الرَّصد العلمي. ما تُثبِّته الإجراءات العلمية في النماذج والجداول والإحصائيات هو مجرَّد عيِّنات افتراضية. لأنَّ اليومي، بقُدرته على الانفلات، له القدرة على تحقيق طفرات في القصد.

البعد الجليّ من اليومي
البعد الخفيّ من اليومي